تحديد النسل

في البرازيل

للدكتور شريف عسيران

نستعرض الآن آراء المفكرين والباحثين في هذا الموضوع الحيوي لنميز غثه من سمينه توصلاً الى نتيجة عملية. يدّعي انصار تحديد النسل ان كثرة النسل سبب نزاع الامم واثارة الحروب وطلب التوسع ونشوء البطالة وهبوط مستوى المعيشة ونشر الأمراض بسبب الفقر وان قلته عامل في نشر لواء السلام وبعث الطمأنينة في النفوس والتمتع بالعيش الرغيد والتخفيف عن كاهل الأم وجعلها أشدّ عناية باولادها وانهُ يمنع ظهور بعض الامراض الوراثية وغير ذلك. ويدّعي خصومه انهُ يؤول الى انقراض الامم وتدهور الاخلاق وان قلة النسل لا كثرتهُ منشأ البطالة وسبب النزاع وان التحديد يحرم الامة كثيراً من العباقرة والنوابغ الى غير ذلك

وسنأخذ بآراء الذين لا ينطقون عن الهوى بل عن روية وبحث: ان كار صوندرز الشهير يتفق مع غيره بتناقص نفوس البشر ويختلف معهم بالطرق المؤدية لتلافي هذا الخطر. ومن رأيه ان كثافة السكان الملائمة لاتتفق ومقدار الكثافة التي يتطلبها حملة لواء اصلاح النسل الذين راعوا نوع السكان دون عددهم وان النظر الى الوجهة السلبية دون الايجابية حمل الناس على الاستخفاف بحركة اصلاح النسل وعدها من النظريات الفلسفية بنا الناحية الايجابية اضمن للوغ الغاية المقصودة وهو لا يعني بذلك نشوء الانسان الاسمى بل زيادة عدد الاشخاص الذين ليسوا دون المعدل السوي اذ ثبت عنده من الاحصاآت الحديثة في السويد والمانيا وهولاندا أن الطبقات السفلى اخذت تحذو حذو العليا بتحديد النسل ومصيرها مصير الاخيرة من هذه الوجهة. فاذا استمرت الحالة على ماهي عليه الآن ازداد الطين بلة واصبح التناقص عاماً فبدلاً من أن يكون النقص ثلاثين بالمائة يصير خمسين او اكثر فيجب ان يزداد عدد الاسر القليلة الخصب وينقص عدد الكثيرة وهو لا يرى ان فروق الذكاء التي بين الطبقات المهذبة وغير المهذبة تدعو الى الاهتمام لانها متقاربة ونجد فروقاً اكبر منها بين الطبقة الواحدة نفسها فلا يمكننا ان

تدعي ان الطبقات العليا اكثر ذكاء من الطبقات السفلى . والسبب في كثرة تناسل الطبقة الاخيرة ليس جهلها طرق تحديد النسل بل الصعوبات التي تكابدها تحملها على النفور منهُ . فهو يميل الى التوفيق بين زيادة النسل وتحديده . ويعتقد ان التحديد ينجي من بهم امراض وراثية عن السقيم الطبي اذ يلجأون الى طرق منع الحمل عوضاً عن التعقيم فيجب ان لا يكره الناس على اكثير او التحديد بل يترك الخيار للناس يتصرفون بحسب اقناعهم لان الناس لا يضعون نصب اعينهم في زواجهم وتناسلهم حجم اسرتهم ولا يخطر ببال احدهم هذه الفكرة حين يقدم على الزواج فالاوفق ان نترك الناس احراراً في هذه الناحية (١)

اما كازونسكي فيذهب غير هذا المذهب ولا يعتقد ان كثرة السكان هي منشأ الحروب والبطالة والفقر بل يعتقد ان قلة السكان هي التي تولد الازمات الاقتصادية والبطالة والفقر وما ينشأ عنها من العواقب فكلما قل الناس قلت الحركات الصناعية اذ لا يوجد العدد الكافي لاستهلاك منتجات الصناعة ومتى قلت الحركات الصناعية قلت موارد البلاد فيؤدي ذلك الى البطالة والمزاحمة . والحقيقة ان البطالة ليست وليدة ازدحام السكان بل سببها سوء توزيع الثروة بسبب الحركة الصناعية التي خلقت الرأسماليين وحصرت الثروة في أفراد معينين فالبطالة منتشرة في اميركا اكثر منها في انكلترا مع ان كثافة السكان في الاولى ٥٠ شخصاً للميل المربع وفي الثانية ٧٠٠ وموارد اميركا الطبيعية اكثر من موارد انكلترا كثيراً . ومن رأي كازونسكي ان كثرة العدد تولد حركة اقتصادية تزيد موارد الامة وتؤول الى رقيها ويضرب مثلاً بالمانيا التي وجدت خلال سنة ١٩١٥ زيادة بوفياتها وقلة بولاداتها سببها الحرب العامة فلم تعد الولادات تربي على الوفيات فمن الضروري ان تتناقص ازمة المساكن لأن عدد الولادات كان يزيد سابقاً عن الوفيات بثمانمائة الف سنوياً . ويصيب كلَّ اربعة اشخاص بحسب هذا المعدل بيت واحد فيجب ان يبنى كل سنة مقدار مائتي الف بيت لاستيعاب المواليد الجدد . ولكن فاتهم ان ليس الصغار هم الذين يولدون ازمة البيوت بل الكبار هم الذين يخلقون هذه الازمة . وتصديقاً لذلك ازدادت ازمة المساكن في المانيا ايام الحرب وكانت حاجتها اليها شديدة فنقص المواليد سنة ١٩١٥—١٩ يؤثر بالمانيا حوالي سنة ١٩٤٠ حينما يكبر الصغار ويزاحمون الكبار فليس الصغار هم الذين يخلقون المزاحمة في ميدان الاعمال . ويمكن ان يكون تحديد النسل نافعاً للفرد مضراً للمجتمع فان حالة زيد من الناس اذا كان صاحب ملك وعقار تكون احسن لو كان لهُ ولد واحد ولغيره عدة اولاد ولكن اذا كان لغيره ولد واحد يخف الطلب على ابنهِ وتسوء حالته . ان الفلاحين هم اكثر الطبقات المزاحمة تحت عبء العوز المالي ولكن ضربة فلاحي اميركا ان حاصلاتهم

(١) The Eugenic Review, April 1935 P. 11-30

الزراعية تزيد عن حاجات الـ ١٢٨ مليون من سكان الولايات المتحدة ولا يجدون سوقاً لتصريف اطعمتهم لكثرة البلاد التي تصدر قمح الحاصلات فلو كانت قوس اميركا ١٤٥ مليوناً عوضاً عن ١٢٨ لتعددت هذه الحاصلات وعاش الفلاح بالرغاء (١)

اما الدكتورة ايندتشاولس فلا ترى ما يراه غيرها من ان وسائط منع الحمل هي العامل الاكبر في تناقص نفوس الامم بل ترى لها تأثيراً محدوداً لان الطب لم يتوصل حتى الآن الى طريقة سهلة مضمونة. وهي تتفق مع كار صوندرز في ان الطبقة غير المثقفة لا تستعملها نظراً الى المتاعب التي تحف بها اضف الى ذلك غلاءها وافساحها المجال لتلاعب الشركات التجارية واستعمالها اساليب الخداع لابتزاز اموال الناس وهي لا ترى ان نقص النفوس ابتدأ حين شيوع طرق تحديد النسل وتنسب هذا النقص الى الانقلابات الاجتماعية التي غيرت نفسية الناس وجعلتهم لا يحفلون بالاولاد ولا سيما الانقلابات الصناعية التي خلقت فئة ارتفع مستواها الاجتماعي بما احرزته من ثراء فكان هذا الارتفاع عاملاً في توليد روح تقليل النسل وقد خلعت هذه الفئة اخلاقها على غيرها من هم اقل نجاحاً وسرت هذه الروح في طبقات الامة وقد ايدت حجتها بما توصل اليه الدكتور وجنر مانسلو Dr. Wagner Mansla من دراسة الشرافة Nobility بألمانيا والتوصل اليها عن طريق الثراء فصارت الشرافة محصورة تقريباً في العقم من الجنسين الرجال عن طريق الثراء والنساء عن طريق الزواج (١)

ان ارتفاع مستوى الناس الاقتصادي بطعامهم ولباسهم وسائر مظاهرهم الاجتماعية صرفهم عن الاهتمام بالاولاد فصار الاعزب اهنأ عيشاً من المتزوج الذي يرسف بقيود الاولاد وما يتطلبونه من تكاليف الحياة وبعد ان كانوا عوناً لآبائهم صاروا عباً ثقيلاً ينوؤون به اضف الى ذلك حرية المرأة الاقتصادية وانعتاقها من عبودية الرجل وافساح المجال لها في ميادين العمل فزاحمت الرجل في المعامل والشركات والبيوت التجارية وسائر الاعمال الاقتصادية فخفت فيها روح الامومة ورأت في الخروج من البيت راحة وطمأنينة ولا يعني ذلك ان رغبة تحديد النسل كانت من المرأة فقط بل هناك طائفة من النساء لا يزلن يملن الى الامومة ويجدن فيها لذة وسلوى وليس للرجال هذه العاطفة فكثير منهم اقل رغبة في الاولاد وهم عامل مؤثر في تقليل النسل والرجال هم الذين يلجأون غالباً الى منع الحمل. فتناقص النفوس متولد من النزعة التقليدية والنظام الاقتصادي الذي صرف الناس عن حياة الاسرة بأنواع الملاهي من سياحات وألعاب ونزه وسهرات ورقص وغير ذلك من الحركات الاجتماعية

(١) Population Movements, p. 72-75

(٢) The Twilight of Parenthood, p. 180

وقد تلافت روسيا السوفيتية اخطار قلة النسل بنظام اقتصادي لا يتنافى مع كثرة النسل فأفسحت المجال للمرأة لكي تدخل مختلف الاعمال واخذت الدولة على عاتقها تربية الاولاد وجعلت للحامل عطلة تتقاضى في مقابلها مرتبها اسكامل ولها حق المعالجة المجانية مع طفلها ومخصصات غذائية اضافية وأسست في المصانع الكبيرة دوراً للحضانة تستطيع المرأة ان تضع ولدها في اثناء النهار وفي الليل اذا رغبت في الذهاب الى دور السنما او الموسيقى. ولها مقصف مجاني في الترام حينما تكون حاملاً وجعلت مدة الشغل ٧ ساعات يومياً فيمكنها ان تتمتع برؤية ولدها وتصرف وقتاً غير قليل معهُ وهي تعترف بالاولاد غير الشرعيين دون الاهتمام بمعرفة آبائهم فلا حاجة تدعو المرأة الى منع الحمل . وبمواصفات الاسقاط لا تقبل تسفيط الحمل إلاَّ لاسباب قوية فلا بد للحامل ان تلد ولادة طبيعية . وقد عممت فكرة الزواج الباكر لتمكن المرأة من ان تحصر جهودها في عملها وهي بين سن ٣٠ — ٤٠

يقول انصار تكثير النسل ان تحديده مظهر من مظاهر حب الذات وابتعاد عن الروح الانسانية التي تحتم على المرء المساهمة في الحياة فاهتمام الانسان بنفسه فقط انانية ممقوتة وفرار من الواجبات الاجتماعية ونقض لناموس الحياة الذي يتطلب استمرار الحياة فاذا اعتنق كل فرد هذا المبدأ فمعناه انقراض النوع البشري والانسان يتميز عن الحيوان بشعوره بالواجبات المعنوية فاذا اقتصر على مجرد اللذة فلا فرق بينهُ وبين الحيوانات. ان الطبقة المثقفة التي تتمتع بواردات اكثر من واردات الطبقة التي دونها هي ارفهُ حالاً من الطبقات الفقيرة وتستطيع ان تعول اولاداً كثيرين اذا طابت حالتها الاقتصادية هي التي تدفعها الى تحديد نسلها بل تلذذها بالحياة هو الدافع الحقيقي ولو خير الانسان بين طفل وسيارة لفضل السيارة على الطفل. فالطبقة المتعلمة أوسع يداً وعلماً بتربية الاولاد واكفأ لايجاد المحيط الملائم لهم وسلوكها مسلك تحديد النسل دليل على فقدان روح التضحية والتخلص من المسؤولية وغيرها من صفات الرجولة الصحيحة

ليست كثرة النسل كما يدعي اخصامها سبباً لاثارة الحروب ولا تسط بدحض هذه الناحية بل نحيل القارىء الكريم على المقتطف الاغر تحت عنوان «التوسع بفتح»[1] في هذه [illegible] لم تسن القوانين الصارمة لتكثير عددها وقد وضعت ايطاليا قانوناً شديداً ضد الدعاية لتحديد النسل والاسقاط المتعمَّد وخفضت الضرائب عن كاهل المتزوجين وزادتها على العزاب وفضلت المتزوجين في ميادين الاعمال ومنحتهم امتيازات خاصة باعطائهم مساكن رخيصة وتوفير الوسائل المريحة لحماية الامهات وبهدي السنبور موسوليني صورته الى كل ام ذات ستة اولاد ورغماً عن هذه السياسة اخفقت في تكثير سكانها لان

(١) المقتطف ١ مارس سنة ١٩٣٧ صفحة ٢٦٥

هذه الحركة الجديدة بدأت سنة ١٩٢٦ فبلغت ولادات ايطاليا السنوية ١,٠٥٩,٠٠٠ وتدنت الى المليون منذ سنة ١٩٣١ وقد حذت المانيا حذو ايطاليا وزادت عليها بتشجيع الزواج ومنح قروض لمن يرغبون فيه وسهلت لهم طرق الاستخدام ولم تلجأ الى التواني الاجبارية بل عمدت الى التشويق والترغيب والدعاية ولا يعلم مدى نجاحها لحد الآن . وتذكر الدكتورة ايند تشارلس تأثير المنح الضئيلة في تخفيف وطأة ازمة المتزوجين نظراً لارتفاع مستواهم الاجتماعي وما يتطلبهُ من النفقات الباهظة . وقد سنت الحكومة العراقية قانوناً بمنح قروض لمن يرغبون في الزواج وهمت بتخفيض ضريبة الدخل بنسبة عدد الاولاد ثم الغي ذلك المشروع وقد روت الانباء الاخيرة ان الحكومة التركية ستوزع اكثر من عشرة آلاف مدنية فضية وعدة جوائز مالية على الامهات اللاتي لهنَّ ستة اطفال او اكثر

﴿ الامة العربية وتحديد النسل ﴾ يحار المرء اذا اراد الجزم في موازنة آراء كبار العلماء وقد جلنا في نواحي الموضوع وبسطنا فكرة عامة عنه فأي مبدأ نختار وأي الطرق افضل لنا

مما لا ريب فيه ان اكثر الامم أخذت تتخوف من نقص سكانها بعد ان ايدته الارقام وصرنا نسمع نداءها في صحفها وكتبها ومجالسها النيابية وأنديتها العلمية فما هو موقف الامة العربية ازاء هذه الحركات . نحن لا نزال امة فتية في اوائل نهضتنا وليس لدينا احصاءات مضبوطة كاملة لمعرفة مصيرنا فلا بد ان نلجأ الى المقايسات . مما لا شك فيه ان احوال اوربا وأميركا الصحية ارقى مما هي عندنا ونظمهم الاجتماعية اضبح من نظمنا ووفياتهم اقل من وفياتنا ويتمتعون بقسط من الوقاية أوفر من قسطنا ومستواهم التهذيبي أعلى من مستوانا ونظمهم الاقتصادية خير من نظمنا ومع ذلك نراهم يتخوفون من تناقص نفوسهم ونحن في أبان نهضتنا نحيط بنا الأمم المفترسة ونحتاج الى العدد الكبير من أبنائنا وسواعد الاقوياء من بني وطننا ولدينا مساحات شاسعة من الاراضي القاحلة التي تحتاج الى الأيدي العاملة والعقول المفكرة ولا يزال الأجنبي حتى الآن يستثمرها وليس عندنا ما عند الغرب من مشكلة كثافة السكان لا بل خيراتنا الطبيعية وموادنا الخام وعدم وجود من يستثمرها وقلة المدافعين عنها هي علة استعمارنا وطمع الأجنبي فينا

ان الطبقة المثقفة من ابنائنا هي التي تتمتع بالمرتبات العالية والعيشة الراضية وهي التي تعرض عن الزواج وتلجأ الى وسائط تحديد النسل وتفتح المجال لكثرة نسل الطبقة الفقيرة التي تجهل هذه المستنبطات فتمطر الامة وابلاً من نسلها يعيش في مستوى اجتماعي منحط وينشر أنواع المرض ويولد سلالاً عليلاً يحط من جودة الامة ويضعف قوتها بينا نحن في أمس الحاجة الى النشأة الصالحة من أبناء هذه الأمة الكريمة التي بهرت العالم بعلمها وثقافتها وقوتها في عنفوان المتنورين من أبناء يعرب هذه الأمانة العظيمة أمانة تاريخنا العظيم ومجدنا القديم